شرح العقيدة الواسطية

الدرس الرابع

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال المؤلف رحمه الله: **(فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ)**

هذا الكلام عن أهل السنة والجماعة، لا ينفون عن الله تبارك وتعالى ما وصف به نفسه؛ فمن عقيدة أهل السنة والجماعة أنّهم يُثبتون لله تبارك وتعالى ما أثبت لنفسه من الصفات، وينفون عنه ما نفى عن نفسه من الصفات، وما سكت عنه سكتوا عنه؛ هذه عقيدتهم، قال: (فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَه)؛ بل يثبتونه له، لأنّه ثبت به الدليل من الكتاب والسنة.

وصفات الله قسمان:

صفات ثبوتية، وصفات سلبية؛ ويُقال لها أيضاً: منفية.

الصفات الثبوتية: هي التي أثبتها الله تبارك وتعالى لنفسه، كصفة الحياء والعلم والرضا والغضب والمجيء والاستواء؛ كلّ هذه الصفات أثبتها لنفسه فنحن نثبتها له.

والصفات السلبية: هي الصفات المنفية التي نفاها الله تبارك وتعالى عن نفسه، كصفة الظلم وصفة النّوم والنسيان والسِّنَة؛ هذه نفاها عن نفسه فننفيها عنه، هذه الصفات اسمها صفات سلبية، أي مسلوبة عن الله، أي: منفية عنه.

وهذه عُرفت بالأدلة الشرعية، ورد الدليل الشرعي بنفيها فنفيناها، والثبوتية ورد الدليل الشرعي بإثباتها فأثبتناها، وماسكت عنه الشارع سكتنا عنه.

وما نفاه الله عن نفسه فهي من صفات النقص التي لا كمال فيها، وما أثبته لنفسه فهي صفات كمال لا نقص فيها.

قال: **(وَلاَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ)**

أي: عن مدلولاته، فالكلام إذا جاء من الشارع- كلام الله وكلام رسوله-؛ أثبتوه على مراد الله وعلى مراد رسوله ﷺ، ولا يميلون به عما أراد الله تبارك وتعالى، فلا يُحرفون الكلام عن مراد الله تبارك وتعالى، (وَلاَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ) يعني: عن مدلولاته، فإذا قال الله تبارك وتعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}؛ أثبتوا صفة الاستواء لله تبارك وتعالى، وأثبتوها بمعنى العلو والارتفاع على مراد الله وعلى مراد رسوله ﷺ.

قال: **(وَلاَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ)**

أي: أهل السنة والجماعة لا يميلون عن الحقّ وعن مراد الله في أسماء الله وآياته.

ما هو الإلحاد؟ ألحد أي مال؛ فأصل الإلحاد هو الميل، لذلك القبر منه شقٌّ ومنه لحدٌ، الشق يأتي مستقيماً لا ميلان فيه، القبر الملحود لحداً يبدأ من الأعلى مستقيماً ثم في آخره من الأسفل يميلون به ناحية القبلة؛ فلأجل هذا الميلان سُمي لحداً، فقوله هنا: (وَلاَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ) كيف يكون الإلحاد في أسماء الله؟

بعدم الإيمان بها، بعدم إثباتها، بنفيّها كما فعلت الجهمية، أو بنفي ما دلّت عليه من صفة كما فعلت المعتزلة والأشاعرة أيضاً في بعض الصفات؛ هذا أيضاً من الإلحاد فيها، ومن الإلحاد فيها أيضاً أن تُسمي بأسماء الله تبارك وتعالى المعبودات التي تعبد مع الله تبارك وتعالى، كما فعل المشركون؛ سمّوا آلهتهم باللات والعزى، اللات من الإله، والعزى من العزيز؛ هذا أيضاً من الإلحاد فيها.

والألحاد في آيات الله تبارك وتعالى هو الميل بها عن مراد الله تبارك وتعالى؛ فهذا يكون إلحاداً، أو بتكذيبها، هذا يكون إلحاداً في آيات الله تبارك وتعالى، فهذا لا يفعله أهل السنة إنّما يفعله أهل البدع؛ أهل الكلام.

قال: **(وَلاَ يُكَيِّفُونَ)**

أي: لا يقولون الصفة الفلانية كيفيتها كيت وكيت، فالكيف يُفوّضونه إلى الله تبارك وتعالى، كما قال الإمام مالك: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة) لا يعني ذلك أنّ الصفة ليست لها كيفية؛ لا؛ الصفة لها كيفية ولكننا نجهلها، نحن لا نعلمها، لذلك لا نكيّفها.

قال: **(وَلاَ يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ)**

لا يقولون عندما يثبتون الصفة: له يد مثل أيدينا، ولا يقولون: له عين مثل أعيننا؛ فلا يُمثلون، لقوله تبارك وتعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} هذه قاعدتنا أهل السنة، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} نفي للتمثيل، {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} إثبات للصفات التي وصف نفسه بها، فنحن نثبت ما أثبت الله لنفسه؛ ولكننا لا نمثلها بصفات المخلوقين.

لماذا لا يُمثّلون صفاته بصفات خلقه؟

قال: **(لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ: لاَ سَمِيَّ لَهُ، وَلاَ كُفْءَ لَهُ، وَلاَ نِدَّ لَهُ)**

هذه الثلاثة متقاربة في المعنى، بمعنى أنّه لا مساوي له، لا ندّ له، لا كفؤ له، لا يوجد أحد يكافئه أو يكون نداً له، (ولا سميّ له)، أي: لا مماثل له؛ فكلّها متقاربة في المعنى، فلعدم وجود الندّ أو المساوي؛ لا يمكن أن تكون صفاته مماثلة لصفات خلقه الذين هم ليسوا ندًّا له، وبما أنّه لا يوجد له ندّ ومساوٍ؛ إذن صفاته لا تُماثل صفات غيره.

قال: **(ولاَ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهَ وَتَعَالَى)**

ذكر أهل العلم أنّ القياس ثلاثة أقسام: قياس شمول، وقياس تمثيل، وقياس أولوية.

قياس الشمول: اشتراك جميع الأفراد في أصل كلّي شامل لها جميعاً؛ فقياس الشمول نلحق الشيء بما هو مثله تماماً، والجامع: هو اسم مشترك أو كلّي يشمل هذا وهذا،

فمثلاً: نقول: زيد مثل علي، يشتركان في الإنسانية، زيدٌ إنسان وعليٌ إنسان وخالدٌ إنسان؛ هؤلاء ثلاثة يشتركون في معنى كلّي الذي هو الإنسانية، إذن فيُقاس عليٌ على خالدٍ أو على زيدٍ، لماذا يُقاس عليه؟ لأنّه يشترك معه في أمر كلّي؛ هذا قياس الشمول. الشيء الكلي الذي تشترك فيه الأفراد هو ما كان له أفراد متساوون في الحقيقة، كالإنسان، هذه الكلمة- كلمة إنسان- لها أفراد: زيدٌ إنسان، خالدٌ إنسان، عليٌ إنسان، بكرٌ إنسان؛ هؤلاء أفراد لكلمة إنسان، مشتركون كلّهم في حقيقة واحدة وهي حقيقة الإنسانية، فمثل هذا تقيس به زيداً على خالدٍ؛ لأنّه يشترك معه في الإنسانية، وهذا القياس لا يمكن أن يُقاس الله سبحانه وتعالى به؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى لا مثل له، فلا يصحّ أن يُقاس هذا القياس، المناطقة -فلاسفة اليونان- يعتمدون على هذا القياس لإثبات ونفي الصفات، فيقولون: إذا قلنا: إنّ له يداً فمعنى ذلك أنّ له جسماً، وإذا قلنا إنّه مستوٍ على العرش أو يُسأل عنه بـ: أين، فمعنى هذا أنّه جسم، وكلّ جسم جوهر أو عرض، إذن فله جوهر وعرض؛ فجعلوا حقيقة الله سبحانه وتعالى فرداً من كلّي متعين يتخيلونه هم في أذهانهم؛ جعلوا عندهم كلّي في ذهنهم وجعلوا الله سبحانه وتعالى فرداً من هذا الكلّي؛ هذا قياس الشمول الذي أدخلهم في المتاهات، وهذا لا يجوز أن نقيس صفات الله سبحانه وتعالى أو ذات الله تبارك وتعالى بشيء من خلقه، فإذا قلنا مثلاً: الحياة، لا نقيس حياة الله سبحانه وتعالى بحياة الخلق؛ من أجل أنّ الكلّ يشمله اسم حيّ، هذا هو الأصل الذي دفع المتكلمين إلى نفي الصفات، فقالوا: إذا قلنا بأنّه مثلاً: حيّ، والعبد المخلوق حيّ، والحياة كلّي تشترك فيها حياة الله وحياة خلقه؛ فتكون هذه الحياة كهذه الحياة؛ فنفّوا الصفة عن الله تبارك وتعالى، وهذا باطل فليست الحياة كالحياة.

والقياس الثاني قياس التمثيل: وهذا القياس هو القياس الفقهي؛ حمل فرع على أصل في حكم لعلّة جامعة؛ وهذا أيضاً لا يجوز في حقّ الله تبارك وتعالى.

والقياس الثالث هو قياس الأولوية: وهو أن يكون الفرع أولى بالحكم من الأصل، وابن تيمية رحمه الله يقول هو مستعمل في حقّ الله تبارك وتعالى؛ فعلى هذا: فكلّ صفة كمال ثبتت للمخلوق؛ فالله سبحانه وتعالى أولى بها، كصفة السمع والعلم والقدرة، وما شابه.

هذه أنواع القياس الثلاثة؛ فقوله هنا: (ولاَ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ) المراد: قياس الشمول وقياس التمثيل.

قال: **(فَإِنَّهُ سبحانه أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلاً، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ)**

يريد من قوله: (فَإِنَّهُ سبحانه أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ) أنّ الله تبارك وتعالى إذا وصف نفسه بشيء؛ فيجب الخضوع والانقياد لأمره، والتصديق لقوله؛ لأنّه هو أعلم بنفسه من غيره، فإذا وصف نفسه بشيء فهو أدرى بنفسه بأنّه يوصف به أو لا يوصف به منك أنت، وأعلم بغيره أيضاً من خلقه.

قال: (وَأَصْدَقُ قِيلاً، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا)، كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} أي: لا أحد أصدق من الله، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} فحديثه حسن لفظاً ومعنى، فالله سبحانه وتعالى من حيث القول قوله أصدق القول وأحسن القول، ومن حيث العلم؛ علمه بنفسه أكثر من علم غيره به؛ بل هو الذي يعلم نفسه، وغيره لا يعلم إلّا ما علّمه هو.

قال: **(ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ مُصَدَّقُون)**

عندما نريد أن نعرف الصّفة كيف نعرفها؟

نعرفها بكتاب الله؛ لذلك قدّم المقدمة الأولى؛ فذكر أنّه هو أعلم بنفسه وذكر أنّه أصدق قيلاً وأحسن حديثاً، أو عن طريق الرسل؛ فنعرف الصفات عن طريق الرسل؛ لذلك

قال هنا: (ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ مُصَدَّقون) فإذا أخذنا عنهم الصفات؛ نكون قد أخذنا عن صادقين في إخبارنا ما أخبرهم الله تبارك وتعالى به.

والرسل هم الذين أوحى الله تبارك وتعالى لهم بوحي من عنده، ففي هذا الوحي يُخبرهم الله تبارك وتعالى عن صفاته، وهم يخبرون العباد؛ فهم (صادقون) فيما يُخبرون به، لا يكذبون على الله تبارك وتعالى؛ فقد ائتمنهم سبحانه وتعالى على دينه وشرعه.

(مُصَدَّقون) وهنا يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: هما نسختان؛ نسخة (مَصْدوقون) ونسخة: (مُصَدَّقون)-المَصْدوق الذي أخبر بالصدّق؛ فهم يخبرون بالصدّق-.

وكأن نسخة (مُصَدَّقون) أجود كي تُخالف ما تقدم من قوله صادقون، فهم صادقون مصدّقون، مُصدّقون: أي أنّ الله سبحانه وتعالى يصدقهم بما يُنزل في آياته من تصديقهم، وأيضاً يُصَدِّقهم كوناً بحيث يحصل ما يُخبرون به كما أخبروا، فنحن نلاحظ الآن أن من يَدّعي النبوة يُخبر عن أشياء ستحدث فتأتي على خلاف ما أخبر، فيُكذّبه الله سبحانه وتعالى في خبره، لا يُصدّقه، أمّا الأنبياء والرسل فيخبرون بالشيء فيقع كما أخبروا تماماً؛ يُصدّقهم الله تبارك وتعالى بإيقاعها كما أخبروا.

قال: **(بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لاَ يَعْلَمُونَ)**

أي: حال الرسل يختلف عن حال أولئك؛ فالرسل تكلموا بوحي من الله سبحانه وتعالى، ووصفوا الله تبارك وتعالى بما وصف به نفسه وبما أوحى إليهم به، وأمّا هؤلاء الذين هم المتكلمون الذين أخذوا يحكمون على الله بعقولهم فهؤلاء لا يعلمون حقيقة الأمور ويكذبون على الله تبارك وتعالى بعقولهم، فهم كاذبون أو ضالون فيما يقولونه.

قال: (**ولهذا قال سبحانه وتعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182)**)

أي: لأنّ الرسل صادقون مُصَدَّقون؛ قال الله سبحانه وتعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ...} إلى آخر الآيات

(سُبْحَانَ رَبِّكَ): التسبيح بمعنى التنزيه؛ الله سبحانه وتعالى يُنزّه نفسه عن النقائص.

(رَبِّ الْعِزَّةِ): أي صاحب العزّة؛ فهو موصوف بالعزّة تبارك وتعالى.

(عَمَّا يَصِفُونَ): يعني عما يصفه المشركون به، فالله سبحانه وتعالى يُنزّه نفسه عن النقائص التي يصفه بها المشركون.

(وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ): لماذا سلّم على المرسلين بعد أن ذكر هذا؟ لأنّهم هم الذين يصفونه بالحقّ وبالكمال، فقال: {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ}

(وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) حمدَ اللهُ تبارك وتعالى نفسه بعد أن نزّهها؛ لأنّ الحمد فيه كمال الصفات؛ فالحمد هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، فنزّه نفسه عن العيوب ووصف نفسه بالكمال.

قال: **(فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ)**

لأنّهم لا يقولون على الله إلّا ما أوحى الله تبارك وتعالى إليهم.

قال: **(وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ)**

يعني عندما تتأمل كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وتقف عند صفات الله تبارك وتعالى؛ تجد في ذلك نفياً وتجد فيه إثباتاً؛ لذلك قسّم العلماء الصفات إلى صفات ثبوتية وصفات سلبية، وفي الغالب تجد الإثبات، أما السلب المفصل فتجده أحياناً عند وجود سبب، مثلاً لمّا ادعى له الكفرة الولد والزوجة؛ نفى عن نفسه الولد ونفى عن نفسه الزوجة،

فحين يوجد السبب يأتي النفي، بخلاف الإثبات؛ الكتاب والسنة مليئان بالصفات الثبوتية، أما أهل الكلام فالعكس، أهل الكلام –المتكلمون- يتوسعون في النفي، ويضيّقون في الإثبات، عكس الكتاب والسنة، سبحان الله! والله من نَوّر الله بصيرته علم ما عليه القوم من ضلال بشكل واضح جداً، لكن الموفق من وفقه الله سبحانه وتعالى.

ثم قال رحمه الله: **(فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ)**

أي: لا ينحرف أهل السنة عن طريقتهم، ولا يتركون ما جاء به المرسلون؛ لأنّه وحي من الله تبارك وتعالى، والله أعلم بنفسه بما يكون كمالاً له وما لا يكون كمالاً، وما يستحق منها وما لا يجوز له منها.

قال: **(فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ)**

فإنّه ماذا؟ الذي جاء به المرسلون، الصراط المستقيم، أي: الطريق الذي لا اعوجاج فيه.

قال: **(صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم)**

طريق الذين أنعم الله تبارك وتعالى عليهم بأنواع النعم؛ نعمة الهداية، نعمة التوفيق، النعم المختلفة.

قال: **(مِّنَ النَّبِيِّينَ)**

من هم هؤلاء الذين أنعم الله عليهم؟ من النبيين، هؤلاء بيّنهم الله تبارك وتعالى في كتابه فقال: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، لمّا

نقرأ في سورة الفاتحة: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} هؤلاء هم الذين أنعم الله تبارك وتعالى عليهم.

قال: **(مِّنَ النَّبِيِّينَ)**

والأنبياء هم كل من أوحى الله تبارك وتعالى إليهم، فيشمل الرسل.

قال: **(وَالصِّدِّيقِينَ)**

الصديق: هو المبالغ في الصدق والتصديق؛ فيُصدِّق الرسل ويَصْدُق في إيمانه وإخلاصه ويُكمّل ذلك، ومن كبار الصديقين وأفضلهم: **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه، ومن الصديقين **مريم**، قال تعالى: {وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ}.

قال: **(وَالشُّهَدَاء)**

المقصود بالشهداء هم الذين قُتلوا في سبيل الله.

قال: **(والصَالِحِينَ)**

الذين يعملون بأوامر الله تبارك وتعالى ويطيعون الله تبارك وتعالى ويجتنبون ما نهى الله تبارك وتعالى عنه؛ هؤلاء هم الصالحون، والذي يظهر أنّ الصالحين هنا غير الأنبياء والصديقين والشهداء.

قال: **(وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ)**

أي: ما سبق من أنّ أهل السنة والجماعة يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ؛ يقول: هذه الجملة دخل فيها:

(مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَص")

لأننا قلنا بأنّنا نصف الله بما وصف به نفسه في كتابه؛ ومن كتابه سورة الإخلاص.

قال: **(الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)**

لقوله ﷺ لأصحابه: "أيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ القُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟" فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: "اللَّهُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ القُرْآنِ" أي: سورة الإخلاص.

قال: **(حيث يقول: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ})**

الله تبارك وتعالى أحدٌ، فهو واحد لا ثاني له في صفاته وفي ذاته وفي أسمائه وفي أفعاله.

(**الصَّمدُ**): في تفسيرها أقوال لأهل العلم، بعضهم قال: الذي تصمد له الخلائق، أي: تميل إليه وترفع إليه حوائجها، فالخلائق كلّها بحاجة إليه، وبعضهم قال: الصمد الكامل في علمه وفي قدرته وفي حكمته وفي كلّ شيء.

(لَمْ يَلِدْ) وهذا من كماله سبحانه وتعالى، فالوالد يحتاج إلى الولد؛ في خدمته وفي نفقته وفي غير ذلك، والله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أحد.

(وَلَمْ يُولَدْ) وما ولده أحد سبحانه وتعالى.

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) لم يكن له مثلاً أحد.

قال: **(وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِ الله")**

أي: وقد دخل في هذه الجملة أيضاً ما وصف به نفسه في أعظم آية في كتاب الله؛ وهي آية الكرسي، لما جاء في الحديث أنّ النبي ﷺ سأل أُبي بن كعب قال: "أيُّ آية في كتاب الله أعظم؟"، فقال له: {**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**..}، فضرب على صدره وقال: "لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر"، يعني دعاء له بالهناء والتمتع بالعلم، هذا الحديث يدلّ على أنّ آية الكرسي هي أعظم آية في كتاب الله؛ لِما احتوت عليه من صفات فيها تعظيم لله تبارك وتعالى وتنزيهه عما لا يليق به، وفيها صفات ثبوتية وصفات سلبية؛ فأثبت لنفسه صفات ونفى عن نفسه صفات في هذه الآية.

قال: (**حَيْثُ يَقُولُ: {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}**).

(اللهُ): أي المألوه المعبود، مشتق من: أَلَهَ يَأْلَهُ إِلَهَةً عَبَدَ يَعْبَدُ عِبَادَةً، فالله الْمَأْلُوهُ أي: الْمَعْبُودُ.

(لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) أي لا معبود بحق إلّا هو، وأخذنا: (لا معبود بحقّ) من قول الله تبارك وتعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} فلا يُقال: لا خالق، ولا يُقال: لا معبود- كما قال بعضهم: لا خالق إلّا الله- هذا خطأ، المشركون كانوا يعلمون أنّه لا خالق إلّا الله، ومع ذلك لمّا جاءهم النبي ﷺ بهذه الكلمة ردّوها وما قبلوها وكفروا بها، ولا معبود إلّا الله: أيضاً خطأ؛ لأنّ المعبودات من غير الله كثيرة، فالصحيح أن نقول: لا معبود بحقّ إلّا الله.

(الْحَيُّ): أي ذو الحياة الكاملة، التي لم تُسبق بعدم ولا يلحقها فناء، قال الطبري رحمه الله: (فإنّه يعني الذي له الحياة الدائمة والبقاء الذي لا أول له بحدٍّ، ولا آخر له بأمدٍ).

(الْقَيُّومُ): القائم بنفسه فلا يحتاج لغيره، والقائم على غيره، الذي يحتاج إليه جميع المخلوقين، قال مجاهد: (القائم على كلّ شيء).

(لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ): الصفات السابقة صفات ثبوتية وهذه صفات سلبية (لا تأخذه سنة) قال قتادة والحسن البصري: (نعسة) لا تأخذه سنة، أي: لا تأخذه نعسة، وهو النعاس، مقدمة النّوم، قال الطبري رحمه الله: (لا تَحُلُّهُ الآفاتُ ولا تناله العاهات؛ وذلك أنّ السنة والنوم معنيان يَغمران فهم ذي الفهم، ويزيلان من أصاباه عن الحال التي كان عليها قبل أن يصيباه) يعني حالة من ضياع العقل في تلك اللحظة، وقال ﷺ: "إنّ الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام".

(لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) قال الطبري رحمه الله: (يعني جلَّ ثناؤه بقوله: {لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} أنّه مالك جميع ذلك بغير شريك ولا نديد، وخالق جميعه دون كلّ آلهة ومعبود؛ وإنّما يعني بذلك: أنّه لا تنبغي العبادة لشيء سواه؛ لأنّ المملوك إنّما هو طَوْعُ يد مالكه، وليس له خدمة غيره إلّا بأمره، يقول: فجميع من في السموات والأرض ملكي وخلقي، فلا ينغي أن يَعبد أحدٌ من خلقي غيري وأنا مالكه؛ لأنّه لا ينبغي للعبد أن يخدم غير مالكه ولا يطيع سوى مولاه) هذا كلام جميل، انظر كيف استدل الإمام الطبري رحمه الله باللازم الذي كنا ندندن به دائماً؛ يذكر الله سبحانه وتعالى ربوبيته كي يُلزم بألوهيته كما ذكر الطبري هنا؛ قال: كأن الله سبحانه وتعالى يقول: فجميع ما في السماوات والأرض ملكي وخلقي، فإذا كان كلّه ملكي وخلقي فلا ينبغي أن يَعبد أحدٌ من خلقي غيري وأنا مالكه، أنا مالك هذا العابد؛ فكيف يَعبد غيري معي؛ لأنّه لا ينبغي للعبد أن يخدم غير مالكه ولا يُطيع سوى مولاه؛ انظر الناس الذين فهموا كتاب الله بحقّ.

(مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ) اسم استفهام، من ذا الذي؟ من هذا الذي يستطيع أن يشفع عند الله من غير إذن الله؟ لا يوجد.

من ذا الذي يشفع: ما هي الشفاعة؟ الشفاعة جعل الوتر شفعاً؛ هذا في اللغة، وفي الاصطلاح: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة؛ هذه الشفاعة في الدنيا تكون بإذن المشفوع له وبغير إذنه، وتكون برضاه وبغير رضاه؛ ربما تكون أنت مقرباً من ملك أو من رئيس والملك هذا له حاجة عندك، فإذا جاءك شخص يريد منه شيئاً وسطّك في الأمر، دخلت وتوسطت عند الملك؛ فما استطاع أن يردّ شفاعتك، لماذا؟ لأنّه يحتاجك، فأنت تشفع عنده من غير أن يأذن لك بالشفاعة ومن غير أن يرضى عن ذاك أصلاً أن تشفع فيه؛ لكنّه محتاج لك، لا يستطيع أن يردّك؛ هذه الشفاعة عند المخلوق، أمّا عند الخالق؛ فلا، الله ليس بحاجة لأحد؛ لذلك لا يشفع عنده أحد إلّا بإذنه، بعد أن يأذن للشافع أن يشفع، إذا أذن لك أن تشفع؛ تأتي لتشفع؛ وإذا لم يأذن؛ فلن تستطيع أن تشفع؛ لذلك لاحظوا النبي ﷺ عندما يأذن الله تبارك وتعالى له بالشفاعة ماذا يفعل؟ قبل أن يأذن له بالشفاعة يذهب ويخرّ عند العرش ويسجد بين يدي الله ويدعو بدعوات حتى يقول الله تبارك وتعالى له: "قم فاشفع تُشَفَّع"، يأذن له الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك لا يشفع إلّا فيمن رضي الله تبارك وتعالى أن يشفع فيه؛ فهما شرطان: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} لا يوجد أحد يشفع عنده إلّا بعد أن يأذن بذلك، إذن فدعوى الكفار أنّهم يعبدون الأصنام كي تقربهم إلى الله زلفى؛ دعوى باطلة لا تنفعهم؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى ما أذن لأصنامهم هذه أن تشفع، ولا رضي أن تشفع فيهم؛ فالشفاعة لا تكون إلّا لموحد، كما سئل النبي ﷺ عن الشفاعة وهي حقّ لمن؟ فقرر أنها تكون للموّحد لا لغيره.

انظروا ماذا قال الطبري رحمه الله: (من ذا الذي يشفع لماليكه إن أراد عقوبتهم إلّا أن يخليه ويأذن بالشفاعة لهم) عبيده يريد أن يعاقبهم، من يستطيع أن يأتي ويشفع فيهم؟ إلّا أن يأذن له بذلك، (وإنّما قال ذلك جلّ ثناؤه لأنّ المشركين قالوا ما نعبد أوثاننا هذه

إلّا ليقربونا إلى الله زلفى، فقال الله لهم: لي ما في السماوات وما في الأرض مع السماوات والأرض ملكاً، فلا تنبغي العبادة لغيري، فلا تعبدوا الأوثان التي تزعمون أنّها تقربكم مني زلفى، فإنّها لا تنفعكم عندي ولا تغني عنكم شيئاً، ولا يشفع عندي أحدٌ لأحدٍ إلّا بتخليتي إياه، والشفاعة لمن يشفع له رسلي وأوليائي وأهل طاعتي" انتهى كلامه رحمه الله.

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) أي الذي أمامهم، وقال بعض السلف يعلم أمور دنياهم.

(وَمَا خَلْفَهُم): الذي وراءهم، وقال بعض السلف: الآخرة.

(وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاء) قال ابن كثير رحمه الله: (لا يطّلع أحدٌ من علم الله على شيء إلّا بما أعلمه الله عز وجل) لا يمكنك أن تعرف شيئا من علم الله إلّا ما علّمك الله تبارك وتعالى، قال: (ويُحتمل أن يكون المراد لا يطّلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلّا بما أطلعهم الله عليه، كقوله:{وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}) هذا المعنى الثاني أيضاً جيد في بابنا هذا، يحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلّا بما أطلعهم الله عليه، فبناء على ذلك لا يجوز أن يُقال فيه إلّا بما قال عن نفسه ووصف نفسه في الكتاب والسنة.

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) وسع: يعني شَمِل، كرسيه: الذي هو موضع القدمين كما قال ابن عباس، السماوات والأرض: فانظر إلى كبر وعظم الكرسي الذي هو لا شيء أمام العرش.

(وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا) قال قتادة: (لا يثقل عليه ولا يجهده) حفظهما؛ يعني حفظ السماوات والأرض، وقال الحسن: (لا يَثقل عليه شيء).

(وَهُوَ الْعَلِيُّ) علوّ ذات وعلوّ صفات، لا كما تدعيه المبتدعة؛ يثبتون علوّ الصفات ولا يثبتون علوّ الذات، نحن نقول: علوّ ذات وعلوّ صفات، بمعنى: الكمال، أي: علوّ المنزلة

وعلوّ الذات.

(الْعَظِيمُ) يعني: ذو العظمة {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}

قال: **(ولهذا)**

أي: لِما احتوت عليه هذه الآية من صفات النفي والإثبات التي تدلّ على تنزيهه سبحانه وتعالى وتعظيمه.

قال: **(كانَ مَنْ قَرَأَ هذهِ الآيةَ في لَيْلَةٍ؛ لَمْ يَزَلْ عليهِ مِنَ اللهِ حافِظٌ ولا يَقْرَبُهُ شيطانٌ حتَّى يُصْبِحَ)**

لحديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصته مع الشيطان، قال: وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم... فقص الحديث، وفيه فقال الشيطان لابي هريرة: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، لن يزال معك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة: «صدقك وهو كذوب، ذاك شيطان». أخرجه البخاري، هذا ما أشار إليه المؤلف رحمه الله.

والله أعلم